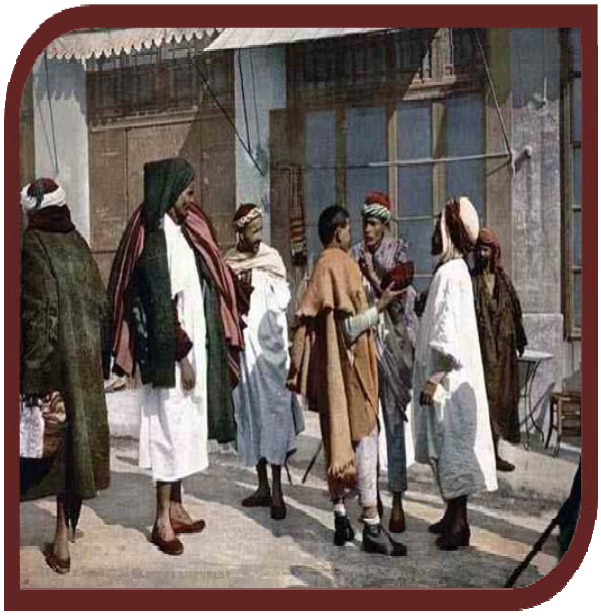

الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيانية

(٩١٠ – ٩٦٢هـ/ ١٥٠٥ – ١٥٥٤م)

أ.د. خالد بلعربي

أستاذ تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط
قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس – جمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالد بلعربي، الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيانية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٠٠ – ١٠٥.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

يحاول هذا المقال التطرق إلى الأوضاع السياسية التي عاشتها الجزائر (المغرب الأوسط) أواخر الدولة الزيانية التي قامت على أراضيه، حيث كانت الجزائر تعيش أوضاعًا جد مضطربة نتيجة محاولات المرينيين في المغرب الأقصى، والحفصيين في المغرب الأدنى التدخل في شؤونها الداخلية، والتلاعب بأقدارها ومصيرها، ومحاولة الإطاحة بها من كل جانب تمهيدًا لاحتوائها، أضف إلى ذلك الصراع حول السلطة داخل البيت الزياني. إن هذه الوضعية التي آل إليها المغرب الأوسط في أواخر العهد الزياني من صراعات داخلية، وتدخلات مرينية وحفصية، وسيطرة القبائل على الكثير من المناطق، كل ذلك جعل شواطئ المغرب ومدنه على وجه الخصوص عرضة لتهديدات الجيوش الإسبانية وهجماته المتكررة، فنقلوا بذلك الحرب من أرض الإسبان إلى أرض بلاد المغرب الأوسط. وخنقوا بذلك الدولة الزيانية وهددوها، وزادت وحدة الدولة تصدعًا، وضعف ملوك بنو زيان المتأخرين على مقاومتهم. وقد استعمل الإسبان كل الوسائل للتوغل داخل البلاد، فبعد أن كانت سيطرتهم لا تتعدى وهران وضواحيها القريبة، امتدت إلى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح فقط، بل لعدم وعي ملوك بني زيان المتأخرين وشعورهم بالخطر المحدق بهم وبالتالي وأمام هذا الوضع المضطرب الذي عاشته الدولة كان لابد من مواجهة هذا الخطر، فاستنجد الجزائريون بالعثمانيين الذين لبوا النداء للوقوف في وجه هذا الخطر الصليبي، وتمكنوا من تحرير سواحل الجزائر وتطهيرها من الخطر الإسباني وأصبحت الجزائر بعد سقوط الزيانيين ولاية عثمانية.

مُقَدِّمَة

يعد موضوع مقالنا الموسوم بـ "الوضع السياسي في الجزائر أواخر سقوط الدولة الزيانية" من بين المواضيع الجديرة بالدراسة لأهميته من جهة، ولكونه يعطينا فكرة عن طبيعة الحكم ورجالات السياسة الذين حكموا الجزائر أو المغرب الأوسط خلال هذه الفترة الهامة من التاريخ. ومن نافلة القول؛ أن الموضوع لم ينل ما يستحقه من العناية في الدراسات التاريخية الحديثة، ودراسة مستقلة وعميقة، فقد تركز جل اهتمام الباحثين على الفترة التي سبقت هذا التاريخ، وأعني بذلك الفترة الممتدة من سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) إلى غاية سنة (٩١٠هـ/١٥٠٥م)، أما الفترة التي عاشتها الجزائر سياسيًا بعد هذا التاريخ، فالدراسات حولها قليلة تعد على الأصابع، بل لا تكاد تظفر بشيء من اهتمام الباحثين في التاريخ لقد وردت بعض التلميحات والإشارات إلى هذا الموضوع في بعض المقالات والمراجع التاريخية، والرسائل الجامعية، وهي تستحق كلها التنويه، لكنها عالجت الموضوع بصورة عامة في سياق دراسة تاريخ الجزائر، ينهض على ذلك ما كتبه الدكتور صالح عباد حول "الجزائر خلال الحكم التركي (١٥١٤ – ١٨٣٠)"، أو ما كتبه الدكتور مولاي بلحميسي في مقال بمجلة الأصالة العدد (٢٦) حول

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

"نهاية دولة بني زيان"، أو الدراسة التي أعدها الدكتور يحي بوعزيز حول المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية. ولعل القاسم المشترك بين هذه الدراسات يكمن في إحدى الخلاصات التي توصل إليها أصحابها وهي أن الجزائر أو المغرب الأوسط دخلت مرحلة الضعف سنة (٩١٠هـ/١٥٠٥م) أي بعد وفاة السلطان الزياني أبو عبد الله محمد الرابع المعروف بالثابتي، واحتلال المرسى الكبير من قبل الإسبان، حتى أصبحت الجزائر محل تنافس إسباني وعثماني بعد ذلك.

أولاً: أوضاع الجزائر قبل الاحتلال الإسباني

كانت الجزائر قبل الاحتلال الإسباني لها، تعيش أوضاعًا جد مضطربة نتيجة محاولات المرينيين في المغرب الأقصى، والحفصيين في المغرب الأدنى التدخل في شؤونها الداخلية، والتلاعب بأقدارها ومصيرها، ومحاولة الإطاحة بها من كل جانب تمهيدًا لاحتوائها، وقد عانى سلاطين بنو زيان الذين كانوا يحكمون الجزائر أو المغرب الأوسط خلال هذه الفترة من كثرة التدخلات، واضطروا لذلك إلى خوض عدة حروب مع جيرانهم المرينيين والحفصيين من أجل الدفاع عن حدود دولتهم. فبمجرد أن ينهي الزيانيون حربهم مع المرنيين من المغرب وتقل أخطارهم تبرز أخطار الحفصيين من الشرق حيث تجدد أطماعهم على المغرب الأوسط محاولين السيطرة عليه وضمه إلى مملكتهم الحفصية في الشرق. وقد استطاع الحفصيون خلال هذه الفترة الهيمنة على الكثير من المناطق في المغرب الأوسط خاصةً في الجهة الشرقية منه وذلك بداية من حكم السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز ٧٩٦هـ.[١]

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك في هذه الفترة هو تهالك أمراء بني زيان في الخلافات والصراعات، بل والحروب فيما بينهم أحيانًا وذلك من أجل إحكام قبضتهم على السلطة في تلمسان، وكان ذلك يحدث بتدخل المرنيين في الغرب، أو الحفصيين في الشرق، حتى صار حكام بنو زيان المتأخرين لعبة في يد البيت المريني أو الحفصي، يتحكمون فيهم بالترهيب حينًا، والترغيب أحيانًا، وهو ما أضعف كيان الدولة، وكسر بنيتها بهذا التدخل المستمر، وأصبح أعضاء البيت الزياني يتسابقون إلى كرسي العرش عن طريق مدينة فاس أو تونس، ويتنافسون على رضى سلاطينها، ونيل حظوظهم.[٢] ومثالنا في ذلك أنه عندما حاول السلطان الحفصي أبو عمر عثمان غزو المغرب الأوسط سنة ١٤٦٣م راسله السلطان الزياني أبو ثابت محمد المتوكل على الله قبل وصوله ينشد الطاعة ويقدم الولاء مجنبًا المغرب الأوسط من أهوال الحرب،[٣] وعندما حاول السلطان الزياني أبو عبد الله محمد الرابع الثابتي أن يقام تسلط الحفصيين وأعلن قطع الدعوة لهم على منابر تلمسان قاوموه وأرغموه على الخضوع والاستسلام،[٤] لأن الدولة الزيانية خلال هذه المرحلة كانت في حالة ضعف شديد لا تقوى على مواجهتهم.

علاوة على ذلك؛ فقد كان المتنافسون من البيت الزياني خلال هذه الفترة يضطرون إلى الاستعانة بالقبائل العربية كبني عامر، والدواودة، وأولاد سعيد، والشابيين، وذلك من أجل الوصول إلى السلطة، وهو ما أدى إلى ضعف الدولة الزيانية، فدخلت بذلك في مرحلة الإنعاش بحيث أخذت تلفظ أنفاسها شيئًا فشيئًا مع مرور الأيام فضلاً عن السنوات. كما ساعد على ضعفها كذلك الحروب الداخلية التي كانت تندلع من قبل المناهضين لسلطانها مثل مغراوة بنو عامر.[٥]

إن الضعف الذي لحق بدولة بني زيان والحروب التي كانت المغرب الأوسط مسرحًا لها والروابط القبلية التي كانت تطبع مجتمع المغرب الأوسط خلال هذه المرحلة أدى إلى انفصال العديد من القبائل وظهور إمارات ترفض الخضوع لسلطة الدولة الزيانية في المغرب الأوسط، ومن القرائن الدالة على ذلك إمارة بنو جلاب في تقرت بقيادة سليمان المريني الجلابي،[٦] ولم تكن الوضعية السياسية على السواحل تختلف عن وضعية أطراف الصحراء، كانت بعض المدن تعيش في نوع من الاستقلال عن الزيانيين كانت مدينة الجزائر التي كانت تابعة للزيانيين قد استسلمت لملك بجاية أبو العباس عبد العزيز لعدم قدرة السلطة الزيانية في تلمسان الدفاع عنها، كما ظلت وهران في عداوة مع بني زيان، وكانت باقي المدن الساحلية تعيش وضعية وهران تقريبًا. لقد وقع المرسى الكبير بيد البرتغاليين سنة ١٤٧١م، فسيطروا على الميناء حتى ١٤٧٧م حيث خرجوا منه نهائيًا. وقد سعت الكثير من القبائل العربية خلال هذه الفترة إلى فرض هيمنتها على الكثير من المناطق التابعة للدولة الزيانية نتيجة ضعف هذه الأخيرة كقبائل بني هلال، وبني سليم.[٧]

إن هذه الوضعية التي آل إليها المغرب الأوسط في أواخر العهد الزياني من صراعات داخلية، وتدخلات مرينية وحفصية، وسيطرة القبائل على الكثير من المناطق، كل ذلك جعل شواطئ المغرب ومدنه على وجه الخصوص عرضة لتهديدات الجيوش الإسبانية وهجماته المتكررة، فنقلوا بذلك الحرب من أرض الإسبان إلى أرض بلاد المغرب الأوسط، وخنقوا بذلك الدولة الزيانية وهددوها، وزادت وحدة الدولة تصدعًا، وضعف ملوك بنو زيان المتأخرين على مقاومتهم وقد استعمل الإسبان كل الوسائل للتوغل داخل البلاد، فبعد أن كانت سيطرتهم لا تتعدى وهران وضواحيها القرية امتدت إلى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح فقط بل لعدم وعي ملوك بني زيان المتأخرين وشعورهم بالخطر لأنهم كانوا غارقين في الصراعات الداخلية فيما بينهم.

ثانيًا: ضعف الدولة الزيانية والاحتلال الإسباني للجزائر

إن التفكك السياسي الذي عرفته الجزائر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي قد شجع الإسبان الذين استكملوا وحدتهم السياسية، وقضوا على الحكم الإسلامي في الأندلس سنة ١٤٩٢م، على غزو الشواطئ الجزائرية بعد البدء بالمغربية، وذلك مبالغة في النكاية بالمسلمين، ومنع اللاجئين الأندلسيين من التفكير والعودة إلى وطنهم السليب، ثم تطويق المسلمين في بلاد المغرب لضرب أي

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

محاولة من شأنها التفكير في إعادة غزو جديد لشبه الجزيرة الإيبرية، ثم محاولة منهم كذلك استغلال الإمكانيات الاقتصادية للجزائر، وموانئه الإستراتيجية من الناحية العسكرية. وبالتالي تحقيق السيادة الإسبانية على الحوض الغربي للمتوسط، والتي لا يمكن أن تتم دون احتلال الجزائر.[٨]

لقد اندفع الإسبان تحت قيادة إيزابيلا وفرديناند وبمباركة رجال الدين الإسبان وعلى رأسهم الكاردينال "كزيمينيس دي سيسيزس" (ximénes de cisnéros) نحو بلاد المغرب بعد سقوط الأندلس، وإنهاء خلافهم مع البرتغال، بخصوص مدينة مليلية بواسطة معاهدة دور دي سلاس سنة ١٤٩٤. كان الهدف واضحًا هو تصفية النفوذ الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط، حتى يتمكن الصليبيون الجدد من استعادة أمجاد الكنيسة الإفريقية التي انتهت بالفتح الإسلامي لبلاد المغرب سنة ٩٢هـ.[٩]

كانت بلاد المغرب خلال هذه الفترة تتقاسمها من الوجهة النظرية ثلاث دويلات، الزيانيون، الحفصيون، المرينيون، وعندما ظهر الخطر الإسباني، كان ملوك هذه الدول وسلاطينها غارقون في دوامة الحروب والصراعات الداخلية فيما بينهم من أجل الاستمتاع بالسلطان والجري وراءه مهما كلفهم ذلك من جهد ووقت وأموال. كما هو حال الدولة الزيانية في أواخر أيامها، حيث كان النزاع حول الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة قد أدى إلى إضعافها وإنهاك قواها وبالتالي تجزئها وتفككها وتقلص نفوذها أكثر فأكثر خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري، السادس عشر للميلاد، وبالتالي فالجزائر أو المغرب الأوسط سيجد نفسه خلال هذه الفترة من الناحية الجيوسياسية أمام فسيفساء من الكيانات السياسية الواهية، المتناحرة فيما بينها والمتقوية بالأجنبي المسيحي، هذه الوضيعة استغلها الإسبان وبدأوا يستعدون لتنفيذ مخططهم في الهجوم على السواحل الجزائرية. وضع الإسبان مخططهم الهجومي موضع التنفيذ، اقنع "كزمنيس" حكام إسبانيا المتعصبين بضرورة القيام بحملات بحرية تحت قيادة دون ديقوري كوردو (Don diego de cordoe) على السواحل الجزارية.

١/٢- احتلال المرسى الكبير ووهران:

ابتداء من سنة ١٥٠٣م، أصبح الخطر الإسباني على الجزائر حقيقة واقعة، قد تنافس على عرش الدولة الزيانية الأخوان، أبو زيان الثالث المسعود، وأبو حمو الثالث بوقلمون وتغلب الثاني عن الأول بعد المساعدة التي قدمها له الملك الإسباني حينذاك شارل كارلوس فأدخله السجن.[١١] واغتنم الإسبان هذه الإضرابات داخل الدولة الزيانية وأقدموا على احتلال المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ بقيادة "دون رايمون دي قرطبة" الذي لم يجد في انتظاره إلاّ أربعمائة رجل من الحامية الزيانية في المرسى، دافعوا عنها بكل ما أوتيوا من قوة إلى أن قتل قائدهم فاستسلموا بعد ثلاث أيام من الحصار الذي ضربه الإنسان عليهم، وعلى الرغم من قدوم قوات أهلية كبيرة التي كانت تتكون من ٢٢ ألف مقاتل وألفي فارس منهم جيش ملك تلمسان في ١٧ سبتمبر ١٥٠٥ لمنع الإنسان من إحكام قبضتهم على المرسى الكبير، إلاّ أن هذه القوات فشلت في ذلك،[١٢] حاول الإنسان منذ استيلائهم على المرسى الكبير إقامة علاقات مع السكان بهدف الحصول على المؤونة، لكنهم وجدوا مقاومة الكثير من القبائل تقف في وجههم.

أدى الاحتلال الإسباني لمرسى الكبير إلى اهتزاز عرش الدولة الزيانية، فاغتنم الأمير الزياني يحي الثابتي شقيق السلطان أبي زيان المسعود، المخلوع والسجين، الاستقلال بمدينة تنس وأحوازها سنة ١٥٠٦م، و ذلك بتحريض من الإسبان ورعايتهم وحمايتهم.[١٣] وقد تسبب التدخل الإسباني في تنس في حدوث حروب بين قبائل تنس والزيانيين، ولم يستفد من ذلك سوى الإسبان الذين ثبتوا أقدامهم في المنطقة. كما شجع ضعف الدولة الزيانية وتفككها الإسبان على احتلال مدينة وهران في ١٨ مايو ١٥٠٩، انطلقت الحملة على وهران يوم ١٦ مايو، وكان يشارك فيها ١٥ ألف جندي، يقودهم "بيدرو نافارو"، بلغت المرسى الكبير يوم ١٧ مايو ١٥٠٩ أين انضمت إليها قوات الحامية الإسبانية هناك، سار الجيش الإسباني نحو وهران، واحتل المرتفعات وأخضع المدينة لقصف مكثف، ثم تمكن من دخولها في نفس السنة، بعد أن قتل هذا الجيش حوالي أربعة آلاف من سكان المدينة.[١٤]

كان احتلال وهران ضربة موجعة للدولة الزيانية، فقد خسرت بذلك مدينة تجارية هامة بالنسبة لها، وقد كان احتلال الإسبان لوهران تأثيرًا كبيرًا على بلاد المغرب، فقد تحرك بنو حفص لطردهم منها بعد التنسيق الذي حصل بين سلطان بجاية عبد العزيز وعاهل تونس، وعلى الرغم من القوات الكبيرة التي توجهت إلى وهران لتحريرها بقيادة أبي فارس ابن السلطان عبد العزيز، إلاّ أن الإسبان تمكنوا من إلحاق الهزيمة بها.[١٥]

٢/٢- توسع نفوذ الإسبان :

لم يقتصر نفوذ الإسبان على المرسى الكبير ووهران اللتين سيطروا عليهما بالقوة فحسب، بل امتد ليشمل كل المدن الساحلية الجزائرية تقريبا، فاحتلوا بجاية سنة ١٥١٠،[١٦] ومستغانم[١٧] ١٥١١، وهنين ١٥٣١،[١٨] وبعد نحو أربع سنوات تمكنوا أيضًا من احتلال مدينة عنابة الساحلية[١٩] بعد احتلاهم لتونس في صيف ١٥٣٥م. وكان من المفروض في مثل هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة الزيانية أن تتوحد القوى الداخلة للدولة وتتكتل لمواجهة الخطر الإسباني الذي أصبح حقيقةً واقعة، لكن الذي حدث هو العكس، فحدثت في تلمسان اضطرابات ضد أبو حمو الثالث، وتحزب ضده أنصار أخيه المسجون أبي زيان، واستنجدوا بخروج في مدينة الجزائر الذي كان موجودًا في تنس لمحاربة يحي الثابتي الموالي للإسبان، فلبي رغبتهم حتى لا يمكن الإسبان من الانقضاض على عاصمة الدولة الزيانية، واتجه إليها سنة ١٥١٧ وأطلق سراح أبي زيان وأعاده إلى عرشه في حين فر أبو حمو الثالث إلى فاس ومنها إلى وهران حيث أمده الإسبان بقوات

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كبيرة، فأعاد الكرة على تلمسان واستردها من عروج سنة ١٥١٨ بمساعدة الإسبان الذين تمكنوا من قتل عروج وأخيه اسحاق الذي كان يرابط في قلعة بني راشد.[٢٠]

ظل أبو حمو الثالث[٢١] يسير في فلك الإسبان، ويقدم ما يريدون بدون تردد إلى أن توفي سنة (٩٣٤هـ/١٥١٨م)، فكان سلطان بني زيان قد تقلص ونفوذهم تضاءل إلى مدينة تلمسان وأحوازها، فخلفه ابنه أبو محمد عبد الله محمد الثابتي[٢٢] الذي حاول أن يتبع سياسة الحياد بحيث لا يميل إلى أي طرف العثمانيين أو الإسبان، ثم قام بنفي أخيه أبا سرحان المسعود، المعارض لهذه السياسة والمنافس له، لكن أبو سرحان المسعود تمكن من العودة إلى تلمسان بعد مساعدة خير الدين في الجزائر له، وسيطر على تلمسان سنة ١٥٢٩م.[٢٣]

٣/٢- مدينة الجزائر توقع معاهدة الاستسلام مع الإسبان:

كانت مدينة الجزائر المنشقة عن الدولة الزيانية خلال هذه الفترة يحكمها سالم بن التومي وبمجرد سقوط بجاية انتاب مسئولوها الخوف، حيث أنهم كانوا يدركون عدم قدرتهم الدفاع عن المدينة، لذا اجتمع مجلس أعيان المدينة لدراسة الوضعية الصعبة لتي آلت إليها مدينتهم وما يجب اتخاذه. وكان قرار المجلس توقيع معاهدة الاستسلام بدل الوقوع تحت الحصار، كما تقرر في ٣١ جانفي/ يناير ١٥١٠ إرسال وفد يقوده سالم بن التومي بصفته رئيس المجلس إلى بجاية لإعلان ولائه للإسبان،[٢٤] وكان سالم بن تومي يعتقد من ورائه توقيعه على معاهدة الاستسلام، تخليص مدينة الجزائر من الحصار الاقتصادي لكنه أوقعها في إذلال سياسي.

إن ضعف الذي آلت إليه مدينة الجزائر مرضه أساسا ضعف الدولة الزيانية التي أصبحت عاجزة الدفاع عن مدنها بسبب سياسة ملوكها المتأخرين الذين قلت شجاعتهم، و طمع الناس فيهم، فلجئوا إلى أعدائهم، الذين اضطلعوا على نقاط ضعفهم و الإقدام على إذلالهم. إن السرعة التي تمكن بها الإسبان من فرض سيطرتهم على السواحل الجزائرية، لا تعود فقط إلى التفكك السياسي الذي كانت تعاني منه الجزائر خاصةً في مطلع القرن العاشر السادس عشرة الميلادي ولكنها تعود كذلك إلى تطور ساح الإسبان بمقارنتها مع سلاح الجزائريين ووسائل دفاعهم،[٢٥] ومع ذلك لم يستطع الإسبان تحقيق ما كنوا يصبون إليه من خلال فصل مسلمي الأندلس والجزائر، واستغلال خيرات هذه الأخيرة، واحتلال سواحلها بل ظل احتلالهم مقصورًا على بعض المواقع والمدن الساحلية، كما تؤكد ذلك وثائق إسبانية كثيرة. ويرجع بعضهم عدم احتلال الإسبان للمدن، والمناطق الداخلية إلى انشغالهم بحروبهم في المناطق الأخرى من أوروبا كإيطاليا، وكذلك بغزو العالم الجديد، ثم إلى المقاومة التي أبداها الجزائريون تحت زعامة بعض المرابطين المجاهدين كابن القاضي ومن تلاهم.

ثالثا: دخول الأتراك إلى الجزائر ونهاية ملك بني زيان

كان دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر استجابةً لطلب الجزائريين، ونجدة لهم، ومشاركة في الدفاع عن بلادهم، وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال الإسباني، في هذه الفترة كان البحر المتوسط مسرحًا لانتصارات مدوية أحرزها الإخوة عروج، وخير الدين، وإسحاق الذين كانوا يمتازون بالشجاعة ومعرفة فنون الملاحقة، مما أهلهم لأن يصبحوا بحارة مهرة في البحر. لقد لفت ذلك انتباه أعيان مدينة الجزائر وجعلهم يستنجدون بهم للتخلص من السيطرة الإسبانية والتحرير الفعلي، ولم يتردد عروج في تلبية هذه الصرخة، فهاجم الحصن الإسباني بعد أن استولى على بلدة شرشال المجاورة، ولكن مدفعيته لم تتمكن من القضاء الحصن الإسباني وهو ما جعل العلاقة بينه وبين سالم بن التومي تسوء وكانت نهايتها مقتل بن التومي،[٢٦] وإعلان عروج نفسه حاكمًا على الجزائر.

أمام هذا الوضع الجديد في المدينة حاولت إسبانيا السيطرة من جديد على المدينة خاصةً بعد الخوف المتزايد لحكام تلمسان الزيانيين من بابا عروج، فجهزت حملة عسكرية ضخمة سنة ١٥١٦ بقيادة دييقو دي فيرا (Diego de vera) للقضاء على خطر عروج قبل استفحاله. ولكن هذه الحملة فشلت أمام خطط عروج الهجومية.[٢٧] هذا النصر الذي حققه عروج بالتعاون مع سكان مدينة الجزائر، ساعد على استقرار الأمر لحكام الجزائر الجديد، كما جعل المناطق الأخرى الواقعة تحت الهيمنة الإسبانية تشد الرحال إلى مدينة الجزائر تطلب النجدة والمساعدة وتعلن الولاء، كدلس، والمدية، وملیانة، ثم تلمسان عاصمة الزيانيين.[٢٨] والظاهر أن أعيان مدينة تلمسان، كانوا يتحسرون على الوضعية التي آلت إليها دولتهم، فاستنجدوا بعروج الذي كان حينذاك بمدينة تنس التي تمكن من تحريرها من المنشق يحي الثابتي، ثم زحف نحو تلمسان الزيانية سنة (٩٢٣هـ/١٥١٨م)[٢٩] وأخرج منها أبو حمو الثالث الذي تولى حكم تلمسان بعد وفاة محمد الخامس سنة (٩٢٢هـ/١٥١٧م)، ثم نصب على العرش الزياني في تلمسان السلطان أبا زيان المسعود، ورغم هذا النصر الذي حققه عروج إلاّ أنّه كان يدرك أن سيطرته على المدينة ستكون صعبة وذلك لبعدها عن مدينة الجزائر، وعليه فقد أرسل حامية عسكرية تتكون من (٥٠٠) جندي إلى قلعة بني راشد التي تتوسط الطريق بين تلمسان والجزائر، لتأمين خط الرجعة إلى هذه الأخيرة ووصول الإمدادات إليها منها أو من الجزائر، أسند قيادة تلك الحامية إلى أخيه إسحاق، وقد سعى عروج إلى إقامة حلف دفاعي وهجومي بينه وبين سلطان فاس محمد الوطاسي ضد النصارى، فرحب به هذا الأخير، غير أن الإسبان لم يكونوا مرتاحين لهذه الانتصارات التي حققها الإخوة بربروس والخطوات التي خطوها في طريق جعل الجزائر تحت سلطتهم، فكان ردهم سريعًا من خلال قضائهم على حامية قلعة بني

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

راشد، ثم حاصروا عروج في تلمسان، وتمكنوا من دخولها وقتل الكثير من سكانها، وكان من بين القتلى "عروج".[٣٠]

أعاد الإسبان الملك في تلمسان إلى أبي حمو الثالث الذي قبل أن يدفع ضريبة سنوية لهم مقدارها (١٢٠٠٠) دوكاتو، (١٢) من الخيل و(٦) من إناث الصقور، كعلامة عن التبعية، بقيت الدولة الزيانية تعيش الإضرابات السياسية حتى أصبحت لقمة سهلة للتدخل الأجنبي يظهر ذلك في تصرفات السلطان أبي عبد الله محمد (١٥٢٨ - ١٥٤٠) الذي سخر اليهود[٣١] لخدمته وتعامل مع كل مَنْ يضمن له الوفاء والبقاء في السلطة إذ جعل اليهود وسطاء بينه وبين الإسبان في التعاون الاقتصادي والعسكري، وقد أغضب ذلك سكان تلمسان وجعلهم يثورون على السلطان بمساعدة بعض الأتراك المسلمين الذي لجئوا إليهم، وتولية أبي زيان أحمد الثاني سنة (٩٤٩هـ/١٥٤٢م) بدلاً منه،[٣٢] وقد حاول السلطان المخلوع أبو عبد الله محمد العودة لحكم عرش الدولة الزيانية، غير أن أبا زيان تمكن من هزمه سنة (٩٤٩هـ/١٥٤٢م)، وأعاد الكرة مرة أخرى تحت مظلة الإسبان الذي كان يقدر عددهم بنحو تسعة آلاف راجل، وخمسمائة فارس، فسقطت تلمسان في يده، حاول أبو زيان أن يعيد عرشه عدة مرات ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن ثار بسكان الدولة في تلمسان في وجه أبي عبد الله محمد، واستدعوا أبا زيان لاستلام السلطة مرة أخرى،[٣٣] وتخلص أهل تلمسان من عداوة الإسبان بعد مقتل أبو عبد الله محمد الموالي للإسبان وهو في طريقه إلى وهران، ثم تقربوا الأتراك سنة (٩٥٧هـ / ١٥٥٠م).

ومما زاد الأمور تعقيدًا وسوءًا، ظهور الدولة السعدية في المغرب الأقصى بقيادة الشريف المهدي (٩١٥-٩٦٤هـ / ١٥٤٤-١٥٥٧م) الذي كان يرنو هو الآخر إلى الجزائر أو المغرب الأوسط حيث رأى في الجزائر المجال الخصب للتوسع ولاسيما وأن الأوضاع كانت مواتية بسبب التدخل الأجنبي فيها، فأراد أن يخلق من قوته بديلاً للأتراك والإسبان في هذه المنطقة فأرسل جيشًا لهذا الغرض بقيادة ابنه الشريف محمد الخوراني إلى تلمسان، فاحتلها يوم ٥ جوان ١٥٥٠م،[٣٤] ثم تقدم الجيش السعدي نحو الشلف في اتجاه مدينة الجزائر لضرب السلطة التركية تفطن حسن باشا حاكم الجزائر لنوايا السعديين، فأسرع بالنهوض إليهم، وأرسل إليهم جيشًا بزعامة حسان قورصو، فتصدى للسعديين قرب وادي الشلف، فهزمهم وأرغمهم على الانسحاب إلى المغرب الأقصى،[٣٥] وبالتالي حرر تلمسان التي قدم إليها حسن باشا، وعزل عن عرشها أبا زيان أحمد الثاني، وولى مكانه أخاه الحسن بن محمد بن عبد الله الثاني، وهو آخر أمراء بني زيان، أعلن عن مبايعته للأتراك بدون شروط سنة (٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، و بقي في منصبه إلى أن عزله "صالح رايس" سنة ١٥٥٤ بسبب عدم قدرته على تسيير أمور الرعية في تلمسان من جهة، ثم ميوله إلى الإسبان من جهة أخرى وألحق تلمسان وأحوازها في الجزائر،[٣٦] وكان ذلك يعني نهاية للدولة الزيانية التي عمرت ثلاث قرون وثمانية عشر عام، وأصبحت حضارتها مدينة إقليمية، تتبع عاصمة الراي وهي مدينة الجزائر.

خاتمة

إن أهم ما يمكن استخلاصه من خلال هذا البحث أن ضعف السلاطين الزيانيين المتأخرين على جميع الأصعدة، من تنافس على السلطة، وعدم قدرتهم الرد على هجومات المرينيين والحفصيين هو الذي أدى بظهور الخطر الإسباني على سواحل المغرب الأوسط ومدنه، فلو أهتم هؤلاء السلاطين بتقوية وتدعيم جهاتهم الداخلية ما كان هذا ليحصل، وأمام هذه الوضعية استمد الجزائريون العون من العثمانيين لانقاد بلادهم من مخالب هذا الاحتلال.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، ج١، دار موفم للنشر والتوزيع الجزائر ٢٠٠٢، ص ٧٠.

(٢) يحي بوعزيز، "**المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية**"، مجلة الأصالة"، العدد ٢٦ جويلية – أوت ١٩٧٥، ص ٢٥.

(٣) حكم السلطان أبو عمرو عثمان الدولة الحفصية من (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) إلى غاية (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) يُنظر: الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة تونس (ب.ت)، ص ١٣٦-١٣٧.

(٤) يحي بوعزيز، المقال السابق، ص ٢٣.

(٥) مولاي بلحميسي، "**نهاية دولة بني زيان**"، مجلة الأصالة، العدد ٢٦، جويلية – أوت ١٩٧٥، ص ٣٣-٣٤.

(٦) صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي (١٥١٤ – ١٨٣٠)**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠٠٥، ص ١٠.

(٧) المرجع نفسه، ص ١٠-١١.

(٨) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين (١٦-١٧م)**، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ١٩٩٨، ص ١٤٢.

(٩) ناصر الدين سعيدوني، "**الجالية الأندلسية في الجزائر**"، مجلة أوراق مدريد، العدد الرابع ١٩٨١، ص ١١١-١٢٤.

(١٠) صالح عباد، المرجع السابق، ص ٩.

(١١) أحمد التوفيق المدني، **حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا**، الجزائر (ب.ت)، ص ٥٣٣.

(١٢) س أيكس دوساندوفال، "**تسجيلات وهران والمرسى الكبير**"، المجلة الإفريقية، العدد ١٥ السنة ١٨٧١، ص ١٧٨.

(١٣) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٥.

(١٤) صالح عباد، المرجع السابق، ص ٣٠.

(١٥) نفسه، ص ٣١.

(١٦) تم احتلال بجاية التي كانت خاضعة لنفوذ الحفصيين خلال هذه الفترة في ٥ جانفي ١٥١٠، بجيش يقوده بيدرونافارو انطلق من جزر البيار نحو بجاية.

(١٧) احتل الاسبان مستغانم في ٢٦ مايو ١٥١١ وفرضت عليها معاهدة بالتزام دفع الضرائب و المكوس للإسبان.

(١٨) كان ميناء "هنين" الأهم بالنسبة للدولة الزيانية في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

(١٩) كانت عناية هي الأخرى خلال هذه الفترة تابعة للحفصيين، وتمكن الإسبان من دخولها سنة ١٥١٠.

(٢٠) يحي بوعزيز، المقال السابق، ص ٢٥.

(٢١) حكم أبو حمو الثالث دولة بني زيان مرتين؛ الأولى من سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) إلى غاية سنة (٩٢٣هـ/١٥٧٧م)، والثانية من سنة (٩٢٤هـ/١٥٢١م) إلى سنة (٩٣٤هـ/١٥٢٨م).

(٢٢) حكم أبو عبد الله دولة بني زيان من سنة (٩٣٤هـ/١٥٢٨م) إلى غاية سنة (٩٤٧هـ/١٥٤٠م).

(٢٣) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٧.

(24) *See*: Haedo (F), *Histoire des rois d'Alger*, traduit et annotée par H.D. de gramont, Revue Africaine N°24 1880. P.55-56.

(٢٥) صالح عباد، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٦) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٢٧**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٨، ص ٣٢٧.

(٢٧) كورين شوفالييه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (١٥١٠-١٥٤١)**، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩١، ص ٣١.

(٢٨) المشرفي عبد القادر، "**بهجة الناظر في أخبار الداخل تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**"، المجلة الإفريقية العدد ٦٥ السنة ١٩٢٤، ص ١١٣.

(٢٩) ابن الأعرج محمد الحسني السلماني، **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، مخطوط، المكتبة الوطنية الرباط، رقم ٢٩٧، ورقة ١٠٤.

(٣٠) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج٢، ترجمه من الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ١٩٨٠، ص ٩.

(٣١) أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٩، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣٢) الأخضر عبدلي، **مملكة تلمسان في عهد بني زيان**، شهادة التعمق في البحث، المرحلة الثالثة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تونس ١٩٨٧، ص ١١٧.

(٣٣) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج١، ص ٧٨.

(٣٤) عبد الحميد حاجيات، **خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية**، ضمن كتاب "**الجزائر في التاريخ**"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨، ص ٤٥٧.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٤٥٨.

(٣٦) أحمد توفيق المدني، **الجزائر**، ... المرجع السابق، ص ٣٢٩.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449